النزعة التعبدية
في شعر أبي نواس

د. خالد بن فهد بن موسى البهلال (*)

المقدمة :

المحيط الاجتماعي والبيئة الثقافية لها بالغ الأثر على النفس الإنسانية، فتأثيرها ينفذ إلى أعماق النفس، ويمكث فيها، ويصحب الإنسان بقية حياته؛ وإن تفرقت به السبل، وازدحمت لديه الآراء، وتشعبت به الأهواء، فمن كانت له نشأة متدينة، وتحصيل معرفي، وكسب علمي، وموروث أخلاقي ظهر أثر ذلك كله عليه ما بقي؛ حتى وإن حاول إخفاءه، بل إن مرده إلى ما كان عليه في نشأته الأولى متى ما انكسرت موجة شبابه، وفلت عوادي الأيام حدَّته، واستوى عوده، وتم تمامه، فلكل شِرّة فترة.

وحيث قد شُهر عن أبي نواس فجوره وخمرياته، وفخره باقتراف المعاصي فإن في طيات شعره ما يدل على نزعة تعبدية تخفى أحياناً وتتجلى أحياناً أخرى، حرصت على استدعائها وتجليتها؛ لنعرف هذا الجانب عنه، ولا نعجل في الحكم عليه، ولا ننبذه كله، فهو من شعراء العربية الكبار الذين أعطوا القدرة على البيان عنها بأجمل صورة وأحكم عبارة.

وهذا البحث " النزعة التعبدية في شعر أبي نواس" يتناول جوانب التدين في شعره، ويبرز أهم صورها، ويعرِّف بها، ويستدعي الشواهد الداعمة لها من شعره.

(*) كلية التربية – قسم اللغة العربية جامعة الأمير سطام بن عبد العزيز في الخرج.

أهداف البحث:

تبيين أن للإنسان جوانب خفية تستحق أن تشهر وتظهر؛ حتى لا يقع تحت حكم أحادي، ومن حق من شُهر بسوء أن يعامل بالعدل؛ بحيث تذكر الجوانب الإيجابية عنه، ويستفاد من صالح قوله، وجميل فعله إن وجد، وهذا ما ينشده هذا البحث، وهو تبيين النزعة التعبدية من خلال بيان مفهومها الذي اصطلح عليه علماء الشريعة، مع الاستشهاد بأمثلة من شعر أبي نواس.

مشكلة البحث وتساؤلاته:

تتمثل مشكلة البحث في دراسة النزعة التعبدية في شعر أبي نواس، في حصر الأبيات التي عبر فيها عن ميوله الدينية، وضم النظير إلى نظيره، بما يساعد على فهم هذا الميول، ويبين شريف قدره، وأهمية استخدامه في الشعر وتوظيفه التوظيف اللائق به.

الدراسات السابقة:

لا أعرف أحداً كتب عن النزعة التعبدية في شعر أبي نواس، وقد اطلعت على كتاب تناول القيم الأخلاقية عنده بالدراسة، اهتم بالقيم الأخلاقية والعادات السلوكية التي تعارف الناس على تقديمها، كالشجاعة والكرم والصبر وغيرها، وهذه مكارم مهمة، تختلف عما عني به بحثنا هذا؛ إذ اهتم بحثنا بالنزعة التعبدية في شعره.

حدود البحث:

التزم البحث توضيح مفهوم النزعة التعبدية وأهميتها وبيان الجوانب التعبدية التي تجلت في شعر أبي نواس، مع تناول الجوانب الموضوعية المتصلة بمصطلح النزعة التعبدية الذي تم اعتماده في شعر أبي نواس.

أهمية البحث:

تكمن أهمية البحث بجدته ولطافته، إذ لم أجد من تناول هذا النوع من الموضعات المهمة لدى الشاعر.

منهج البحث:

تم استخدام المنهج الوصفي في تحرير مصطلح النزعة، وتحديد الجوانب التعبدية الجلية في شعره، كما تم استخدام المنهج الوصفي الاستقرائي التحليلي من خلال استقراء ديوان أبي نواس للوصول إلى الشواهد المساندة لتوضيح الهدف.

إجراءات البحث:

بعد قراءة ديوان الشاعر تم جمع الأشعار التي فيه معاني تعبدية، ومن ثم تم تقسيمها حسب المعاني التي تناولها الشاعر فجاءت في عدة موضوعات اكتفيت بأهمها وأعظمها وتم كتابة مقدمة لكل مبحث وتعزيزه بالشواهد الشعرية من الديوان.

خطة الدراسة:

تضمنت خطة البحث هذه المقدمة.

تمهيداً تناول المدلول اللغوي للنزعة والمدلول الاصطلاحي.

الشعر والدين.

لماذا أبو نواس؟

وعلى ضوء ذلك جاءت مباحث أربعة:

الأول: الإيمان بالقضاء والقدر في شعر أبي نواس.

الثاني: تعظيم الله وإجلاله في شعر أبي نواس.

الثالث: إحسان الظن بالله في شعر أبي نواس.

الرابع: الابتهال والاستغفار في شعر أبي نواس.

ثم الخاتمة، وتشمل أهم التوصيات.

ثم مكتبة المصادر والمراجع.

التمهيد

مفهوم النزعة اللغوي والاصطلاحي

قال صاحب اللسان: "يقال للإنسان إذا هَوِيَ شيئاً ونازَعَتْه نفسُه إليه: هو يَنْزِعُ إليه نِزاعاً...ومنه نَزَعَ الإنسانُ إلى أَهله والبعيرُ إلى وطَنِه يَنْزِعُ نِزاعاً ونُزُوعاً: حَنَّ واشتاقَ"(١).

والمقصود بـــ "النزعة" هو الرغبة أو الميل نحو عمل إرادي، فهو شعور يتغلب على النفس الإنسانية، فيسرع في التشكل والظهور في صور متعددة، ويكون هذا الشعور عن ميل ورغبة واعية، وهي تعد ظاهرة أدبية في العصر الحديث مقابل الاتجاه أو المذهب (Doctrine of system) الذي هو عبارة عن معتقد ديني أو مذهب فلسفي أو منحى سياسي يسلم به المرء، ويوفق بين تصرفه في الحياة ومضمون ما يعلم به هذا المعتقد.. وفنياً: آراء وتقنيات يعتمدها الفنان أو الأديب في تحقيق آثاره، ويقرب هنا من معنى الكلمة من مدلول المدرسة(٢).

ويمكن وصف"النزعة التعبدية" بالتعبير عن الحس الديني الكامن في تكوين الإنسان المسلم، وهو موجود بدرجات متفاوتة عند الناس جميعاً، مطموراً عند من يجهد في حجبه ومنعه من الظهور إلى العلن، إلى درجة جحد الوجود، وظاهراً جلياً عند آخرين.

إن الدين مكون أساسي في بناء تصور الإنسان للحياة الدنيا والتعامل مع تعقيداتها الكبيرة، وهو بناء روحي يساهم في استقرار النفس واطمئنانها، ويعين على مواجهة ظروف الحياة المختلفة، والتطلع إلى رضا الإله الذي أرسل

---

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة "نزع".

(٢) المعجم الأدبي، عبد النور، ص٢٤٥-٢٤٧.

رسوله الخاتم صلى الله عليه وسلم بالدين الحنيف، وذلك بفعل ما يأمر به واجتناب ما ينهى عنه.

كل إنسان تعرض له في مراحل حياته مؤثرات شتى، تساهم كلها في تشكيل بنيته الثقافية، وصبغته المعرفية، وتكوين لغته ورسم شخصيته الخاصة به، وإذا كان الإنسان يحن ويشتاق لملاعب صباه ومراتع طفولته فإنه من باب أولى سيحن ويشتاق إلى مكونات نشأته ومناهل المعرفة التي نهل منها، فيرجع عوده على بدئه، ويعود إلى مصادره المعرفية ومكوناته الأدبية حين يريد أن يسك عبارة أو يبني بيتاً أو ينشئ قصيدة.

الشعر والدين

بدأت هذه المشكلة مبكرةً في تاريخ النقد الأدبي، فلقد كان الشعر في زمن الجاهليين طليقاً حراً، لا يحتكم لضوابط دينية، ولا يخضع لمعايير أخلاقية، كان الشعر فناً للفن وأدباً مكشوفاً صريحاً، لم يتورع أصحابه عن وصف مبادئهم، ومغامراتهم اللاهية أو الماجنة... بصورة طبيعية صادقة[1]، وبعدما جاء العصر الإسلامي فرض الدين سلطانه على كل أمور الحياة، وظل المعيار الديني قائماً في النظرة إلى الأدب ما دام سلطان الدين قوياً على العقول، وتبدلت الأحوال بعد مقتل خليفة المسلمين الراشد عثمان بن عفان ﷺ، وانصدع صف الأمة، وتشرذم الناس حسب أهوائهم، وتبعاً للفئة التي يناصرونها، وعادت العصبية للقبلية، وانفسح الميدان لفنون الهجاء والفخر والمديح، والشاعر لا يعبر هنا عن نظرته الفردية، وإنما عن روحه القبلية، وازداد انقسام الأمة في عصر بني أمية، وظهرت تحولات خطيرة في كل مناحي الحياة: السياسية والاجتماعية والدينية، وتحزب الناس، وأصبح لكل حزب شعراؤه وخطباؤه، وأمعن الشعراء في هذه الفترة بالهجاء الفاحش والإقذاع فيه ، ولا ينكر أن جميع هؤلاء

(١) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب، ص١٤٢.

الشعراء – أو بعضهم على الأقل – وجدوا من علماء الدين ومن الفقهاء والخلفاء من حاول تقييد ألسنتهم، لكنها ظلت محاولات ضعيفة قليلة الأثر(١).

إن الشعر له تأثير كبير وفعال في النفوس، فهو سريع العلوق بالقلوب والنفوذ إلى مواطن التأثير، وقد عقد الجرجاني في دلائل الإعجاز فصلاً " الكلام على من زهد في رواية الشعر وحفظه وذم الاشتغال بعلمه وتتبعه"(٢)، معللاً هذا الزهد أو التزهيد بأمور عدة، ذكر منها من يرى هذا الرأي بما يجده فيه من هزل وسخف وهجاء وسخف وكذب وباطل على الجملة، إضافةً إلى تعلقه بأحوال الشعراء، وأنها غير جميلة في الأكثر، وقوله: "وقد ذموا في التنزيل"، ثم عقب على ذلك بقوله: " وأيٌ كان من هذه رأياً له فهو في ذلك على خطأ ظاهر، وغلط فاحش وعلى خلاف ما يوجبه القياس والنظر، وبالضد مما جاء به الأثر، وصح به الخبر."(٣)، ويقول: "أما من زعم أن ذمه له من أجل ما يجد فيه من هزل وسخف وكذب وباطل، فينبغي أن يذم الكلام كله، وأن يفضل الخرس على النطق، والعي على البيان"(٤)، قال مجيباً على من زهد بالشعر معللاً ذلك بأحوال قائليه: " وأما التعلق بأحوال الشعراء، بأنهم قد ذموا في كتاب الله تعالى، فما أرى عاقلاً يرضى به أن يجعله حجة في ذم الشعر وتهجينه، والمنع من حفظه وروايته، والعلم بما فيه من بلاغة، وما يختص به من أدب وحكمة، ذاك لأنه يلزم على قود هذا القول أن يعيب العلماء في استشهادهم بشعر امرئ القيس وأشعار أهل الجاهلية في تفسير القرآن وفي غريبه وغريب الحديث. وكذلك يلزمه أن يدفع ما تقدم ذكره من أمر النبي ﷺ بالشعر وإصغائه

(١) النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب، ص ١٣٤.
(٢) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١٧.
(٣) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١١.
(٤) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ١١.

إليه واستحسانه له. هذا ولو كان يسوغ ذم القول من أجل قائله، وأن يحمل ذنب الشاعر على الشعر لكان ينبغي أن يخص ولا يعم، وأن يستثنى فقد قال الله عز وجل: "إلا الذين آمنوا وعملوا الصالحات وذكروا الله كثيراً" ولولا أن القول يجر بعضه بعضاً، وأن الشيء يذكر لدخوله في القسمة لكان حق هذا ونحوه أن لا يشاغل به، وأن لا يعاد ويبدأ في ذكره"(١).

وقد ظهرت بوادر قضية العلاقة بين الشعر من جهة، والدين من جهة أخرى، في نهاية القرن الثاني الهجري، وقد انقسم النقاد حولها إلى قسمين:

الأول: من يرى ضرورة الفصل بين الشعر وبين الدين، فعبد الملك بن قريب الأصمعي مثلاً يظهر مواقفه الصريحة في هذه القضية في عبارته المشهورة: الشعر نكدٌ بابه الشر، فإذا دخل في الخير ضعف، هذا حسان بن ثابتٍ فحلٌ من فحول الجاهلية، فلما جاء الإسلام سقط شعره، وقال مرة أخرى: شعر حسان في الجاهلية من أجود الشعر، فقطع متنه في الإسلام، لحال النبي ﷺ(٢).

ويقصد بالخير هنا قضايا الدين، فشعر فحول الشعر في الجاهلية – في رأيه – هي الطريقة المثلى، حيث غاصوا في كل الموضوعات، بعيدين عن الضوابط الأخلاقية أو الدينية، لهذا عد مقياس الأصمعي موضوعياً، ويكاد يتخذ التوجه الموضوعي عنده معياراً للتقويم الفني من خلال موازنة بدا فيها الأصمعي حذراً من باب الخير الذي أومأ به إلى موضوعات الشعر الإسلامي المنبثقة من القناعة العقائدية التي لم تكن عنده حافزاً أصيلاً يداني حافز التدفق

(١) دلائل الإعجاز، عبد القاهر الجرجاني، ص ٢٧-٢٨.

(٢) الشعر والشعراء، ابن قتيبة الدينوري، ص١٨٨.

العفوي المنبثق من أرض القناعة الفكرية الممتدة إلى معطيات التربة المبكرة، التي يتلقاها الشاعر في المراحل الأولى من حياته[١].

ولم يقبل أبو العباس عبد الله بن المعتز أن نربط بين الشعر من جهة والدين من جهة أخرى، يقول في رده على رسالة أبي بكر محمد بن القاسم الأنباري: ولم يؤسس الشعر بانيه على أن يكون المبرز في ميدانه من اقتصر على الصدق، ولم يغو بصبوة، ولم يرخص في هفوة، ولم ينطق بكذبة، ولم يغرق في ذم، ولم يتجاوز في مدح، ولم يزور الباطل، ويكسبه معارض الحق؛ ولو سلك بالشعر هذا المسلك لكان صاحب لوائه من المتقدمين أمية ابن أبي الصلت الثقفي، وعدي بن زيد العبادي؛ إذ كانا أكثر تذكيراً وتحذيراً ومواعظ في أشعارهما من امرئ القيس والنابغة[٢]، وممن رفض أن يخضع الشعر للدين، قدامة بن جعفر، إذ لم يجعله مقياساً لجودة الشعر أو رداءته، إذ إن المعاني مطروحة أمام الشاعر، ودوره أن يصوغها حسب اقتداره، وفي أي فن شاء، يقول: وعلى الشاعر إذا شرع في أي معنى كان، من الرفعة والضعة، والرفث والنزاهة، والبذخ والقناعة، والمدح والعضيهة[٣]، وغير ذلك من المعاني الحميدة والذميمة أن يتوخى البلوغ من التجويد في ذلك إلى الغاية المطلوبة[٤]، وممن يؤيد قدامة بن جعفر في منع خضوع الشعر للدين أبو بكر الصولي، فهو يرى أن لا علاقة بين الشعر والدين، وموقفه ذلك أملاه دفاعه عن أبي تمام، حين اتهمه البعض بالكفر، يقول: وقد ادعى قوم عليه الكفر بل حققوه، وجعلوا ذلك سبباً للطعن على شعره، وتقبيح حسنه، وما ظننت أن كفراً

(١) ملامح من تراث العرب النقدي، محمود الجادر، ص ٨٩.

(٢) جمع الجواهر في الملح والنوادر، ابن الحصري القيرواني، ص ٤١.

(٣) في اللسان، مادة "عضه" قال: العَضَهُ والعِضَهُ والعَضِيهةُ: البَهِيتةُ، وهي الإِفْكُ والبُهْتانُ والنَّمِيمةُ..

(٤) نقد الشعر، ابن قدامة، ص١٩.

ينقص من شعرٍ، ولا أن إيماناً يزيد فيه..لأن الناس على ظاهرهم حتى يأتوا بما يوجب الكفر عليهم بفعلٍ أو قولٍ، فيرى ذلك أو يسمع منهم، أو يقوم به بينة عليهم[1]، ثم يضيف إلى موقفه السابق أنه لا يجوز لشاعر أن يعتقد بقلبه ما يغضب الله عز وجل، سواء كان جاداً أم مازحاً، يقول: على أنه ما ينبغي لجادٍ ولا مازحٍ أن يلفظ بلسانه، ولا يعتقد بقلبه، ما يغضب الله عز وجل، ويتاب من مثله[2].

وممن أيد الفصل بين الشعر وبين الدين، من العلماء أبو هلال العسكري، فهو يرى أن الخطابة لها الحظ الأوفر من الدين أما الشعر فمجاله أرحب وأوسع من أن يقيد ويحاصر، فالشعر – وخاصة الجاهلي منه الذي هو أقوى الشعر عنده – ينطوي على كثير من الكذب، ويحوي قذفاً للمحصنات، ومليء بشهادة الزور، يقول: ولا يقع الشّعر في شيء من هذه الأشياء موقعاً، ولكنّ له مواضع لا ينجعُ فيها غيره من الخطب والرسائل وغيرها، وإن كان أكثره قد بني على الكذب والاستحالة من الصفات الممتنعة، والنعوت الخارجة عن العادات والألفاظ الكاذبة، من قذف المحصنات، وشهادة الزور، وقول البهتان، لاسيما الشعر الجاهليّ الذي هو أقوى الشعر وأفحله، وليس يراد منه إلاّ حسن اللفظ، وجودة المعنى، هذا هو الذي سوّغ استعمال الكذب وغيره مما جرى ذكره فيه، وقيل لبعض الفلاسفة: فلان يكذب في شعره، فقال: يراد من الشاعر حسن الكلام، والصّدق يراد من الأنبياء[3].

(١) أخبار أبي تمام، أبو بكر الصولي، ص ١٧٢.
(٢) أخبار أبي تمام، أبو بكر الصولي، ص ١٧٤.
(٣) كتاب الصناعتين، أبو هلال العسكري، ص ١٣٦-١٣٧.

الثاني: الذين يرون إخضاع الشعر للدين والأخلاق، وتقييده بآداب الإسلام، وممن يرى ذلك الرأي أبوبكر محمد بن القاسم الأنباري، حيث وجه رسالة إلى ابن المعتز يرفض فيها ما يدور في مجلسه من مجون أبي نواس، وما يتداوله الأدباء من شعره، وما قاله في الفحش وقلة الحياء، يقول: جرى في مجلس الأمير ذكر الحسن بن هانئ والشعر الذي قاله في المجون، وأنشده وهو يؤم قوماً في صلاة؛ وهو إن لكل ساقطة لاقطة، وإن لكلام القوم رواة، وكل مقول محمول. فكان حق شعر هذا الخليع ألا يتلقاه الناس بألسنتهم؛ ولا يدونونه في كتبهم، ولا يحمله متقدمهم إلى متأخرهم؛ لأن ذوي الأقدار والأسنان يجلون عن روايته، والأحداث يُغَشّون بحفظه، ولا ينشد في المساجد، ولا يتحمل بذكره في المشاهد؛ فإن صنع فيه غناء كان أعظم لبليته؛ لأنه إنما يظهر في غلبة سلطان الهوى، فيهيج الدواعي الدنيئة، ويقوي الخواطر الرديئة؛ والإنسان ضعيف يتنازعه على ضعفه سلطان الهوى؛ ونفسه الأمارة بالسوء، والنفس في انصبابها إلى لذاتها بمنزلة كورة منحدرة من رأس رابية إلى قرار فيه نار، إن لم تحبس بزواجر الدين والحياء أداها انحدارها إلى ما فيه هلكتها، والحسن بن هانئ ومن سلك سبيله من الشعراء الذي ذكرناهم شطار كشفوا للناس عوارهم، وهتكوا عندهم أسرارهم، وأبدوا لهم مساويهم ومخازيهم، وحسنوا ركوب القبائح، فعلى كل متدين أن يذم أخبارهم وأفعالهم، وعلى كل متصور أن يستقبح ما استحسنوه، ويتنزه من فعله وحكايته وقول هذا الخليع: ترك ركوب المعاصي إزراء بعفو الله تعالى، وحض على المعاصي أن يتقرب إلى الله عز وجل بها؛ تعظيماً للعفو، وكفى بهذا مجوناً وخلعاً داعياً إلى التهمة لقائله في عظم الدين[1].

إنها دعوة صريحة من ابن الأنباري كي يبتعد الناس عن شعر اللهو والمجون؛ لأنه يثير النفوس، ويهيج العواطف.

---

(١) جمع الجواهر، ص ٤٠-٤١.

ونجد نقاداً من مثل الباقلاني وابن بسام أخلاقيين في معيارهم، فالباقلاني يعيب معلقة امرئ القيس من زاوية أخلاقية..وتحس لدى ابن بسام تحرجه من الناحية الدينية في مقاييسه النقدية، وضيقه وتبرمه بكل شعر يُشْتَمُّ منه الإلحاد أو استعمال المصطلح الفلسفي(١).

والمتأمل في مجموع الأخبار والآثار الواردة عن المصطفى المختار ﷺ يدرك أن موقف الدين لم يرفض الشعر جملةً، ولم يقبله على إطلاقه؛ فهو قد رفض منه ما يتعارض مع رسالة الإسلام وروحه، كبذيء القول من قذف المحصنات، والسباب والطعن في الأنساب، وإذكاء العصبيات، والتفاخر باقتراف الآثام، وارتكاب الكبائر والمجاهرة بها، وتهوينها بين الناس.

لماذا أبو نواس؟

لقد اتهم أبو نواس بضعف تدينه، ورُمي برقة الدين، وعدم تمسكه بعقيدته، واشتهر بالفسق القولي والعملي، يقول ابن شرف القيرواني: "وأما أبو نواس، فأول الناس في خرم القياس، وذلك أنه ترك السيرة الأولى، ونكب عن الطريقة المثلى؛ وجعل الجد هزلاً، والصعب سهلاً؛ فهلهل المسرد، وبلبل المنضد، وخلخل المنجد؛ وترك الدعائم، وبنى على الطامي والعائم؛ وصادف الأفهام قد نكلت، وأسباب العربية قد تخلخلت وانحلت؛ والفصاحات الصحيحة قد سئمت وملت؛ فمال الناس إلى ما عرفوه، وعلقت نفوسهم بما ألفوه، فتهادوا شعره، وأغلوا سعره؛ وشغفوا بأسخفه، وكلفوا بأضعفه، وكان ساعده أقوى، وسراجه أضوى، لكنه عرض الأنفق، وأهدى الأوفق؛ وخالف فشهر وعرف، وأغرب فذكر واستظرف، والعوام تختار هذه الأعلاق، وأسواقهم أوسع الأسواق؛ فشعر أبي نواس، نافق عند هذه الأجناس، كاسد عند أنقد الناس، وقد فطن إلى استضعافه، وخاف من استخفافه؛ فاستدر بفصيح طروده، طرفا حد اللسان

(١) تاريخ النقد الأدبي عند العرب، د. إحسان عباس، ص ٦٦٩-٦٧٠.

وحدوده، وهو محدود في كثرة التظاهر، على من غض منه بـــالحق الظـــاهر، ليس إلا لخفة روح المجون، وسهولة الكلام الضعيف الملحون؛ على جمهـــور العوام، لا على خواص الأنام[١]، ولئن كان أبو نواس قد اشتهر شعره وســـيرته بمخالفات شرعية، ومجاهرة علنية بالوقوع فيما نهى الدين عنه فإن هذا مما يرد ويستهجن وينكر، ويطوى سقيط قوله ولا ينشر.

ولعل من المناسب ذكر شيء من سيرته الذاتية، وكلام أهل العلم في شأنه؛ فهو الحسن بن هانئ المعروف بأبي نواس، ينتسب إلى الحكم بن سعد العشيرة من قحطان، ولد في الأهواز، ونشأ في البصرة، ولم يكد يبلغ السادسة من عمره حتى توفي أبوه، فقامت أمه على تربيته، ودفعته إلى الكتّاب، وحفظ القرآن على يعقوب الحضرمي، فلما حذق القرآن رمى إليه يعقوب بخاتمه، وقال: " اذهب فأنت أقرأ أهل البصرة"[٢]، وشب الغلام، وأخذ يختلف إلى حلقات المسجد الجامع يتزود من الدراسات اللغوية والدينية ومن الشعر القديم ومعانيه، وروى نوادر الشعر، ولم يكتف بالشعر واللغة، فقد طلب الفقه والتفسير والحديث، حتى قال عنه ابن المعتز: "وكان أبو نواس عالماً فقيهاً، عارفاً بالأحكام والفتيا، بصيراً بالاختلاف، صاحب حفظ، ونظر ومعرفة بطرق الحديث، يعرف ناسخ القرآن ومنسوخه، ومحكمه ومتشابهه، وقد تأدب بالبصرة، وهي يومئذ أكثر بلاد الله علماً وفقهاً وأدباً، وكان أحفظ لأشعار القدماء والمخضرمين وأوائل الإسلاميين والمحدثين"[٣]، فلما فرغ أبو نواس من إحكام هذه الفنون تفرغ للنوادر والمجون والمُلح، فحفظ منها شيئاً كثيراً حتى صار أغزر الناس، ثم أخذ في قول الشعر، فبرز على أقرانه قال الإمام الشافعيّ: لولا مجون أبي نواس

(١) رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء، ابن شرف القيرواني، ص ٣٣.
(٢) أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه، ابن منظور، ص٢١.
(٣) طبقات الشعراء، ابن المعتز، ٢٠١/١.

لأخذت عنه العلم[1]، وقال عنه الجاحظ: ما رأيت أحداً كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه[2].

لقد كان أبو نواس في شبابه وكهولته مشغولاً عن أمور دينه بأمور دنياه، منغمساً بملذات الحياة، تكاد تكون فلسفته في الحياة مادية بحتة، فلم يشغل نفسه بما بعد الموت، ولا بالنظر العقلي أو الروحاني إلى الوجود وجماله، والخالق وجلاله، ولم يشدو في شعره بتمجيد نبي، ولا تعظيم ولي، وقد كان بطبيعته واقعيًا مسرفاً في واقعيته، فلم يعرف مداعبة الأحلام، ولم يتعلل بالأوهام، بل يسعى سيراً وتوثباً وحفراً وتنقيباً وراء ملذاته وشهواته، وكان ينفذ إلى الأفكار الجليلة من خلال هذه الواقعية المحضة، وشخصية أبي نواس تكاد تكون بعيدة عن روح الدين، فالدين في أوسع معانيه هو الاعتقاد بقدرة تدبير الله وحسن تصريفه، والرجل المتدين يلوذ بهذا الاعتقاد، ويرضى بالقضاء والقدر، ويتقي به قوارع الخطوب وعواصف النوائب، وهو في نظره حقيقة الحقائق، ومنبع الأمل، ومبعث الأخلاق، ففي كل مظهر من مظاهر الكون آثارٌ له ظاهرة وشواهدٌ عليه ناطقة.

ولأن شعر أبي نواس قد حل مرتبة عليا في جمال الصياغة وجودة العبارة وحسن التراكيب وبراعة التصوير والقدرة الفائقة على الإبداع وتوليد المعاني وسهولة المآخذ فإن إهماله بالكلية ليس عدلاً؛ يقول ابن المعتز: "وحدثني ناس عن أبي نواس أنه قال: ما ظنكم برجل لم يقل الشعر حتى روى دواوين ستين امرأة من العرب منهن الخنساء وليلى فما ظنكم بالرجال؟ وحدثت عن ابن مرزوق عن أبي هفان قال: كان أبو نواس آدب الناس وأعرفهم بكل شعر،

(١) الأعلام، الزركلي ، ٢/٢٢٥.

(٢) أبو نواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه، ابن منظور، ص٦.

وكان مطبوعاً، لا يستقصي، ولا يحلل شعره، ولا يقوم عليه.." [1]، وقال عبد الرحيم العباسي: "وما زال العلماء والأشراف يروون شعر أبي نواس، ويتفكهون به، ويفضلونه على أشعار القدماء. قال الجاحظ: لا أعرف بعد بشار مولداً أشعر من أبي نواس.. وقال أبو عمرو الشيباني: لولا ما أخذ فيه أبو نواس من الأرفاث لاحتججنا بشعره؛ لأنه كان محكم القول لا يخلط. وقال ابن دريد: سألت أبا حاتم عن أبي نواس فقال: إن جد حسن، وإن هزل ظرف، وإن وصف بالغ، يلقي الكلام على عواهنه لا يبالي من حيث أخذه"[2].

ولأن القارئ لشعره يلمس في جنباته معاني التدين حيث يظهر أثر نشأته الأولى؛ إذ حفظ القرآن مبكراً، وعني بالسنة الشريفة في صغره، قبل أن يُشغل بالشعر ويهذي به، فكان حقاً له علينا وللقارئ أيضاً أن يدرك ذلك، وتُبرز تلك الموضوعات التي كشفت جانب التدين في شعره، "وإذا رجع إلى الحقائق، فنطق اللسان لا ينبئ عن اعتقاد الإنسان؛ لأن العالَم مجبول على الكذب والنفاق، ويحتمل أن يظهر الرجل بالقول تديناً، وإنما يجعل ذلك تزييناً، يريد أن يصل به إلى ثناء، أو غرض من أغراض الخالبة[3] أم الفناء، ولعله قد ذهب جماعة هم في الظاهر متعبدون، وفيما بطن ملحدون[4]، وإن من شأن العباقرة في كل حين، أن يكونوا موضع اختلاف فيما يفعلون وفيما يقولون، وفيما يأخذون وفيما يدعون، وقد دلت أشياء في ديوان أبي نواس أنه كان يتأله، وأن للمعاني الإسلامية حضوراً في شعره، وإن كان حضوراً يسيراً، ومن ذلك

(١) طبقات الشعراء، ابن المعتز، ٢٠١/١.

(٢) معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، عبد الرحيم العباسي، ٨٤/١-٨٥.

(٣) الخالبة: الدنيا.

(٤) رسالة الغفران، أبو العلاء المعري، ص٣٠٠.

مصطلح الحل والحرمة، وهو من مصطلحات الفقه الشرعي، وقد وظف أبو نواس هذا المصطلح في شعره، يقول من قصيدة يمدح بها الأمين:

وَإِذا المَطِـيُّ بِنـا بَلَغـنَ مُحَمَّـداً فَظُهورُهُنَّ عَلـى الرِجـالِ حَـرامُ[1]

ويقول:

أَتَغـدو لِلحَـديثِ إِلـى فَقيـهٍ وَتَنظُرُ في الحَـلالِ وَفـي الحَـرامِ[2]

ويقول:

أَتَـرى لاءً حَرامـاً وَتَـرى هـاءً حَـلالا[3]

ومن القضايا الكبار في الإسلام قضية توحيد الله وإفراده بالعبـادة، وهـذا المعنى نجده فيما يروى عنه، يقول:

تَرى عِندَنا مـا يَكـرَهُ اللَـهُ كُلَّـهُ سِوى الشُركِ بِالرَحمَنِ رَبِّ المَشاعِرِ[4]

كما تمثل حضور المعاني الإسلامية عند أبي نواس بتأثر شعره المـبطن بكتاب الله سبحانه، وتأثره – كذلك – بسنة المصطفى ﷺ، ومن ذلك قوله:

إِنَّ القُلـوبَ لَأَجنـادٌ مُجَنَّـدَةٌ لِلَّـهِ فـي الأَرضِ بِـالأَهواءِ تَختَلِـفُ
فَما تَعـارَفَ مِنهـا فَهـوَ مُؤتَلِـفٌ وَمـا تَنـاكَرَ مِنهـا فَهـوَ مُختَلِـفُ[5]

---

(١) ديوان أبي نواس، ص٤٨٩.

(٢) ديوان أبي نواس، ص ٣٢٣.

(٣) ديوان أبي نواس، ص٤٨٩.

(٤) ديوان أبي نواس، ص ٢٠٨.

(٥) ديوان أبي نواس، ص٢٧٧، والأبيات مأخوذة من الحديث الذي رواه أبو هُرَيْرَةَ، أَنَّ رَسُولَ اللهِ ﷺ قَالَ: (الْأَرْوَاحُ جُنُودٌ مُجَنَّدَةٌ، فَمَا تَعَارَفَ مِنْهَا ائْتَلَفَ، وَمَا تَنَاكَرَ مِنْهَا اخْتَلَفَ) رواه البخاري٣/١٣٩٤ومسلم (٢٦٣٨).

فمشاهد الإيمان وكثرة الدعاء والابتهال والاستغفار، وإحسان الظن بربـــه، كل ذلك واضح وصريح في جنبات الديوان، ويمكن تناول المباحث التالية لبيان ذلك، وهي:

١- الإيمان بقضاء الله وقدره.

٢- تعظيم الله وإجلاله.

٣- الابتهال والاستغفار.

٤- إحسان الظن بالله.

وفي هذا كفاية، مع أن هناك موضوعات يمكن إضافتها كالإيمان بالملائكة والرسل واليوم الآخر، لكن تركتها خشية الإطالة.

الإيمان بالقضاء والقدر في شعر أبي نواس

"القَدَرُ: القَضاء المُوَفَّقُ، يقال: قَدَّرَ الإِله كذا تقديراً، وإِذا وافق الشيءُ الشيءَ قلت: جاءه قَدَرُه. ابن سيده: القَدْرُ والقَدَرُ القضاء والحُكْم، وهو ما يُقَدِّره الله عز وجل من القضاء، ويحكم به من الأُمور..وقَدَّره تقديراً؛ وقَدَرَ الله عليه ذلك يَقْدُرُه ويَقْدِرُه قَدْراً وقَدَراً، وقَدَّره عليه وله..وقوله تعالى: ﴿ إِلَّا ٱمۡرَأَتَهُۥ قَدَّرۡنَآ إِنَّهَا لَمِنَ ٱلۡغَٰبِرِينَ ﴾[الحجر:٦٠]، قال الزجاج: المعنى علمنا أنها لمن الغابرين، وقيل: دَبَّرنا أنها لمن الغابرين أَي الباقين في العذاب. ويقال: استَقْدِرِ اللهَ خيراً، واسْتَقْدَرَ اللهَ خَيْراً سأَله أَن يَقْدُرَ له به؛ قال:

فاسْتَقْدِرِ اللهَ خيراً وارضَيَنَّ به فبَيْنَما العُسْرُ إِذ دارتْ مَياسِيرُ

وفي حديث الاستخارة: (اللهم إِني أَسْتَقْدِرُكَ بقُدْرَتك..)؛ أَي: أَطلب منك أَن تجعل لي عليه قُدْرَةً"[1]، فالإيمان بالقضاء والقدر له أهمية كبرى ومكانة عليا، فهو أحد أركان الإيمان التي لا يتم إيمان العبد من دونه، " فهو من أسنى

(١) لسان العرب، لابن منظور، مادة "قدر".

المقاصد والإيمان به قطب رحى التوحيد ونظامه، ومبدأ الدين المبين وختامه، فهو أحد أركان الإيمان، وقاعدة أساس الإحسان، التي يرجع إليها، ويدور في جميع تصاريفه عليها"[1]، فالقدر: هو قدرة الله، ومن آمن به فقد آمن بقدرة الله، ومن كذب به فقد كذب بقدرة الله جل وعلا، وهو من الأمور التي تعرف بالفطرة السليمة، فنصوص الإسلام قد جلته وأوضحت غامضه، وبينته غاية البيان، وقد عني الصحابة رضوان الله عليهم به وسألوا عنه النبي ﷺ، وعلم الصحابة تلاميذهم من التابعين بإحسان، واختبروهم؛ ليحزروا مدى فهمهم، كما جاء في صحيح مسلم، عَنْ أَبِي الْأَسْوَدِ الدِّيلِيِّ، قَالَ: قَالَ لِي عِمْرَانُ بْنُ الْحُصَيْنِ، أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى عَلَيْهِمْ مِنْ قَدَرِ مَا سَبَقَ؟ أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقُلْتُ: بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ، وَمَضَى عَلَيْهِمْ، قَالَ فَقَالَ: أَفَلَا يَكُونُ ظُلْمًا؟ قَالَ: فَفَزِعْتُ مِنْ ذَلِكَ فَزَعًا شَدِيدًا، وَقُلْتُ: كُلُّ شَيْءٍ خَلْقُ اللهِ وَمِلْكُ يَدِهِ، فَلَا يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْأَلُونَ، فَقَالَ لِي: يَرْحَمُكَ اللهُ إِنِّي لَمْ أُرِدْ بِمَا سَأَلْتُكَ إِلَّا لِأَحْزِرَ عَقْلَكَ، إِنَّ رَجُلَيْنِ مِنْ مُزَيْنَةَ أَتَيَا رَسُولَ اللهِ ﷺ فَقَالَا: يَا رَسُولَ اللهِ أَرَأَيْتَ مَا يَعْمَلُ النَّاسُ الْيَوْمَ، وَيَكْدَحُونَ فِيهِ، أَشَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ مِنْ قَدَرٍ قَدْ سَبَقَ، أَوْ فِيمَا يُسْتَقْبَلُونَ بِهِ مِمَّا أَتَاهُمْ بِهِ نَبِيُّهُمْ، وَثَبَتَتِ الْحُجَّةُ عَلَيْهِمْ؟ فَقَالَ: (لَا، بَلْ شَيْءٌ قُضِيَ عَلَيْهِمْ وَمَضَى فِيهِمْ، وَتَصْدِيقُ ذَلِكَ فِي كِتَابِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿ وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّىٰهَا ۝٧ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴾[الشمس:٧-٨])[2]، فالإيمان بقضاء الله وقدره يحمل على الإخلاص، وسبب للهداية وزيادة الإيمان والتوكل على الله، والخوف منه، وسبب لإحسان الظن بالله؛ لعلمه بأن الله لا يقضي قضاءً إلا وفيه تمام العدل والحكمة، وله ثمار كثيرة لمن رضي بقضاء

(١) شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن القيم، ص٢.

(٢) صحيح مسلم، عناية محمد فؤاد عبد الباقي، ٨/٤٨-٤٩ (٢٦٥٠).

الله والقدر، وقد كان أبو نواس ممن يستدعي هذا الركن في أشعاره في حالات شتى، وقد سبق قوله:

لَـــــيسَ لِلإِنـــــسانِ إِلّـــــا ... مـــا قَـــضى اللَـــهُ وَقَـــدَّر

لَـــيسَ لِلمَخلـــوقِ تَدبيـــــــــ ... ـــــرٌ بَـــلِ اللَـــهُ المُـــدَبِّر[1]

ويقول من قصيدة يوضح فيه تسليمه لمن يجادله حين يحتج عليه بالقدر، وأنه يخصمه بذلك فيسكت ، كمن ألقم حجراً، أو كالحجر:

فَواحُزنـــــاهُ مِـــــن عَـــــينٍ ... بِنَظرَتِهـــا جَنَـــت ضَـــرَري

فَـــــإِن عاتَبتُهـــــا فيـــــهِ ... أَحـــــالَتني عَلـــــى القَـــــدَرِ

فَتَخـــــــصِمُني فَأَســـــــكُتُ لا ... أُحيـــــرُ القَـــــولَ كَـــــالحَجَرِ[2]

ومن قصيدة يهجو بها إسماعيل بن سهل بن نيبخت، ويعيره بالبخل، ثم يحيل ما حل به إلى قضاء الله الذي لا يرده أحد، يقول:

وَلَكِـــن قَـــضاءٌ لَـــيسَ يُـــسطاعُ رَدُّهُ ... بِحيلَةِ ذي مَكرٍ وَلا فِكرِ ذي عَقلِ[3]

ومن قصيدة له يمدح فيها الخليفة الأمين، ويصفه بحرصه على رعاية الأمة وتحننه عليها؛ حتى أنه لو استطاع دفع قضاء الله وقدره عنها لفعل، ولكن لا أحد له قدرة على ذلك، يقول:

خَليفَـــــةٌ يَعتَنـــــي بِأُمَّتِـــــهِ ... وَإِن أَتَتـــــهُ ذُنوبُهـــــا غَفَـــــرا

حَتّـــى لَـــوِ اِســـتَطاعَ مِـــن تَحَنُّنِـــهِ ... دافَـــعَ عَنهـــا القَـــضاءَ وَالقَـــدَرا[4]

---

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦٢٠.

(٢) ديوان أبي نواس، ص ٢٨٠.

(٣) ديوان أبي نواس، ص ٥١٥.

(٤) ديوان أبي نواس، ص ٤٢٤.

ويقول من قصيدة يمدح بها الخليفة العباسي الأمين، مشيداً بكرمه وسخي عطائه، محيلاً على قضاء الله وقدره بتفرده في فضله، يقول:

هُوَ الَّـذي قَـدَرَ اللَـهُ القَـضاءَ لَـهُ ... أَلّا يَكونَ لَهُ فـي فَـضلِهِ ثـانِ[1]

ويقول مادحاً صاحباً له:

سَـبَقَ القَـضاءُ لِحُـسنِهِ ... أَلّـا يَكـونَ لَـهُ قَـرينُ[2]

وحين مات أستاذه والبة بن الحباب رثاه بقصيدة يبكيه فيها، ويعزي نفسه بأن ما قدره الله على العبد فلا مفر له منه، وأن الله قد كتب الفناء على عباده، فكل نفس ذائقة الموت، وما الناس إلا هالك وابن هالك، يقول:

لا تَبعَـدَنَّ أَبـا أُسـامَـةَ فَالمَنِيَّـةُ واجِبَـة
كُـلُّ اِمـرِئٍ تَغتالُـهُ مِنهـا سِـهامٌ صـائِبَة
كُتِـبَ الفَنـاءُ عَلـى العِبـا دِ فَكُـلُّ نَفـسٍ ذاهِبَـة[3]

وحين مرض صديق له كتب إليه أبياتاً يذكر فيها أن المرض قضاء من الله، لا قدرة له على رده ولا رفعه، وليس برضاه، ثم دعا له أن يصرف الله عنه الأذى الذي حل به، فإن من قد نزل به القضاء تفديه نفسي، ثم يذكر أن الدهر يفاجئ الأحبة ويباغتهم، وهذا من تعبير الشعراء الذي لا يقرون عليه، يقول:

يـا مَريـضاً زادَ قَلبـي مَرَضـا ... وَبِرَغمـي كـانَ ذا لا بِالرِضـا
صَرَفَ الـرَحمَنُ لـي عَنـكَ الأَذى ... وَبِنَفـسي قيـدَ أَسـواءِ القَـضا
مـا يُريـدُ الـدَهرُ مِنّـي وَيحَـهُ ... ما أَمِنتُ الدَهرَ حَتّـى اِعتَرَضـا[4]

(١) ديوان أبي نواس، ص ٤٢٠.
(٢) ديوان أبي نواس، ص ٣٧٧.
(٣) ديوان أبي نواس، ص ٥٧٨.
(٤) ديوان أبي نواس، ص ٥٧٦.

لقد كان أبونواس يحتج بالقضاء والقدر، ويسلم به لمن احتج عليه به، بل ويوصي به من كان في حال حجاج أو مجادلة إذا استدعى الأمر ذلك، يقول:

وَقُــل هَــذا قَــضاءُ اللَــهِ هَــل تَــدفَعُ أَو تَجحَــد[1]

تعظيم الله وإجلاله في شعر أبي نواس

"التَّعْظيمُ: التَّبْجيلُ، ومِنْ صِفاتِ الله عزَّ وجلَّ العلِيُّ العَظِيمُ، ويُسبِّح العبدُ رَبَّه فيقول: سبحان رَبِّي العظيم؛ والعَظِيمُ: الذي جاوَزَ قدْرُهُ، وجلَّ عن حدودِ العُقول حتى لا تُتَصَوَّر الإحاطةُ بِكُنْهِه وحَقِيقته.. والعِظَمُ في صِفاتِ الأَجْسام: كِبَرُ الطُّولِ والعرضِ والعمْق، والله تعالى جلَّ عن ذلك. قال النبي ﷺ: أَمَّا الرُّكوعُ فعظِّمُوا فيه الربَّ أي اجْعلُوه في أَنْفُسِكم ذا عَظمةٍ، وعَظمةُ اللهِ سبحانه لا تُكَيَّفُ ولا تُحدُّ ولا تُمثَّل بشيء، ويجبُ على العبادِ أَن يَعْلَمُوا أنه عظيمٌ كما وصَفَ نفْسه وفَوْقَ ذلك بلا كَيفِيَّةٍ ولا تَحْديدٍ.. وإذا وُصِفَ العبدُ بالعَظمة فهو ذَمٌّ لأن العظمة في الحقيقة لله عز وجل، وأما عَظَمَةُ العبدِ فكِبْرُه المذمومُ وتَجَبُّره"[2]، والعِظم خلاف الصغر، فهو الكبير الذي لايحده حدٌّ، ولا يحيط بعلمه بشر، ولا يقْدِر قدْره إلا هو سبحانه، فهو عظيم بذاته وصفاته، وهو عظيم بمعنى: معظَّم؛ أي: يعظِّمه خلقه، وملائكته، وأنبياؤه، ورسله، والفاقهون من عباده، إن العظيم هو الواسع في ذاته، الكامل في صفاته، العزيز المجيد، الكبير الخبير[3]، ومن تعظيم الله امتلاء القلب بمحبته وإجلاله، ومدحه والثناء عليه بما هو أهله، فهو أهل الثناء والمجد والإجلال والتعظيم، وفي هذا يصح قول أبي نواس:

---

(١) ديوان أبي نواس، ص ٢٩٥.

(٢) لسان العرب، ابن منظور، مادة "عظم".

(٣) مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، سلمان العودة، ص١٥٩.

إِذا نَحــنُ أَثنَينــا عَلَيــكَ بِــصالِحٍ فَأَنتَ كَما نُثني وَفَوقَ الَّذي نُثني[1]

ومن أحق من الله سبحانه بالتعظيم والتبجيل، فهو الخالق الرازق المحيي المميت، وقد كان لأبي نواس أبيات فيها تعظيم وتبجيل للجليل سبحانه، يقول داعياً إلى مراقبة الله وعدم اقتراف المعاصي في الخلوات، فالله مطلع على العبد لا يغفل عنه، ولا يسرنا أنا قد لهونا وغفلنا حتى تراكمت الذنوب تلو الذنوب علينا:

إِذا ما خَلَوتَ الدَهرَ يَوماً فَــلا تَقُــل خَلَوتُ وَلَكِن قُــل عَلَــيَّ رَقيــبُ

وَلا تَحــسَبَنَّ اللَــهَ يَغفَــلُ ســاعَةً وَلا أَنَّ ما يَخفــى عَلَيــكَ يَغيــبُ

لَهَونا بِعُمرٍ طــالَ حَتّــى تَرادَفَــت ذُنوبٌ عَلى آثــارِهِنَّ ذُنــوبُ[2]

ويقول من قصيدة يذكر نفسه بيوم القيامة ويعاتب نفسه على ما سلف منها:

تَبــــارَكَ رَبٌّ دَحــــا أَرضَــــهُ وَأَحكَــــمَ تَقــــديرَ أَقواتِهــــا

وَصَــــيَّرَها مِحنَــــةً لِلــــوَرى تَغُــــرُّ الغَــــوِيَّ بِغَزواتِهــــا

فَمــــا نَرعَــــوي لِأَعاجيبِهــــا وَلا لِتَــــصَرُّفِ حالاتِهــــا

نُنــــافِسُ فيهــــا وَأَيّامُهــــا تَــــرَدَّدُ فينــــا بِآفاتِهــــا

أَمــــا يَتَفَكَّــــرُ أَحيائُهــــا فَيَعتَبِــــرونَ بِأَمواتِهــــا[3]

ويقول مسبحاً ومعظماً الله جل وعلا، ومتأملاً في قدرة الله على خلق الإنسان وتكوينه، وكيف يمكث في قرار مكين محجوباً عن العيون، ثم هذا

(١) ديوان أبي نواس، ص ٤١٥.

(٢) ديوان أبي نواس، ص ٦١٥.

(٣) ديوان أبي نواس، ص ٦١١.

يكون خلقاً آخر وتنفخ فيه الروح، وتبدو منه الحركات، وقد تخلق من سكون، يقول:

سُبحانَ مَن خَلَقَ الخَلقَ مِن ضَعيفٍ مَهينِ
يَسوقُهُ مِن قَرارٍ إِلى قَرارٍ مَكينِ
في الحُجبِ شَيئاً فَشَيئاً يَحورُ دونَ العُيونِ
حَتّى بَدَت حَرَكاتٌ مَخلوقَةٌ مِن سُكونِ [1]

وقد نسب أبو منصور الثعالبي لأبي نواس أبياتاً في وصف النرجس واتخاذه دليلاً على تعظيم الله وتوحيده، يقول:

تَأمّلْ في نَباتِ الأرضِ وانْظُرْ إلى آثارِ مَا صَنَعَ المليكُ
عُيونٌ من لجينٍ شَاخِصاتٌ بأبْصَارٍ هي الذَّهبُ السَّبِيكُ
عَلى قُضُبِ الزَّبَرْجَدِ شَاهدَاتٌ بأنّ الله ليسَ له شَرِيك[2]

والمعنى أن أوراق النرجس البيضاء المستديرة، والتي في وسطها كرات صفراء اللون كأنها عيون من ذهب محاطة بإطار من فضة.

وله قصيدة يعظم فيه الله سبحانه وتعالى، ويصرح بفناء المخلوقات جميعها، المذخور والمذكور، ولن يبقى على وجه الأرض إلا الله وحده لا شريك ولا ند له، ويوضح أن للشر علامات يعرف بها، وللخير علامات لا تخفى، ومن يخفي أسراره عن الخلق فإن الله به عليم، لا تخفى عنه خافية، يقول:

كُلٌّ نَاعٍ فَسَيُنعى كُلٌّ باكٍ فَسَيُبكى
كُلٌّ مَذخورِ سَيَفنى كُلٌّ مَذكورِ سَيُنسى

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦١٩.

(٢) اللطائف والظرائف، الثعالبي، ص ١٠.

لَـــيسَ غَيـــرَ اللَـــه يَبقـــى مَـــن عَـــلا فَاللَـــهُ أَعلـــى
إِنَّ شَـــيئاً قَـــد كُفينـــا هُ لَـــهُ نَـــسعى وَنَـــشقى
إِنَّ لِلـــشَرِّ وَلِلخَيـــر لَـــسيما لَـــيسَ تَخفـــى
كُـــلُّ مُـــستَخفٍ بِـــسِرٍّ فَمِـــنَ اللَـــهِ بِمَـــرأى
لا تَـــرى شَـــيئاً عَلـــى اللَـــهِ مِـــنَ الأَشـــياءِ يَخفـــى[1]

ويقول حامداً ومعظماً ربه جل وعلا:

الحَمـــدُ لِلَّـــهِ العَلِـــيِّ وَمَـــن لَـــهُ تَزكـــو المَحامِـــد[2]

وله قصيدة يحكي فيها حواراً دار بينه وبين زنديق اسمه أبان بن عبد الحميد اللاحقي، وهو شاعر مطبوع، غير أنه كان على ضلال مبين، وقد أبان أبو نواس في قصيدته تلك عن فقه عميق، ونزعة تعبدية، وغيرة على دين الإسلام قوية، وقدرة على المحاجة، ثم لما أوضح للزنديق الحجة من الكتاب والسنة لم يقبل، بل استهزأ بما أورد عليه من الحجج القرآنية، حينها لم يكن من أبي نواس إلا أن قام من مجلس ذاك الزنديق، وهجر مجلسه، ومما يلمس في القصيدة تعظيمه لربه جل وعلا، وإيمانه برسل الله صلوات الله عليهم وسلامه، يقول منها:

جالَـــستُ يَومـــاً أَبانـــاً لا دَرَّ دَرُّ أَبـــانِ
حَتّـــى إِذا مـــا صَـــلاةُ الـــ ـــظُّـــهرِ دَنَـــت لِـــأَوانِ
فَقـــامَ مُنـــذِرُ رَبّـــي بِـــالبِرِّ وَالإِحـــسانِ
وَكُلَّمـــا قـــالَ قُلنـــا إِلـــى انقِـــضاءِ الأَذانِ
فَقـــالَ كَيـــفَ شَـــهِدتُم بِـــذا بِغَيـــرِ عِيـــانِ

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦١٧.
(٢) ديوان أبي نواس، ص ٥٦٧.

لا أَشـــــهَدُ الـــــدَهرَ حَتّـــــى تُعـــــــــاينَ العَينـــــــــانِ
فَقُلـــــتُ سُـــــبحانَ رَبّـــــي فَقـــــالَ سُـــــبحانَ مـــــاني
فَقُلـــــتُ عيـــــسى رَســـــولٌ فَقـــــالَ مِـــــن شَـــــيطانِ
فَقُلـــــتُ موســـــى نَجِـــــيُّ الـــــ ـــــــــــمُهَيمِنِ المَنّـــــــانِ
فَقـــــالَ رَبُّـــــكَ ذو مُقـــــــــ ـــــــــلَةٍ إِذَن ولِـــــــــسانِ
أَنَفـــــــــسُهُ خَلَقَتـــــــــهُ أَم مَـــــن فَقُمـــــتُ مَكـــــاني
وَقُلـــــتُ رَبِّـــــيَ ذو رَحـــــــــ ـــــــــمَةٍ وَذو غُفـــــــــرانِ
وَقُمـــــتُ أَســـــحَبُ ذَيلـــــي عَـــــن هـــــازِلٍ بِـــــالقُرانِ
عَـــــن كـــــافِرٍ يَتَمَـــــرّى بِـــــالكُفرِ بِـــــالرَحمَنِ[1]

إحسان الظن بالله في شعر أبي نواس

"الإحْسانُ: ضدُّ الإساءة...وأَحسَنَ به الظنَّ: نقيضُ أَساءَه"[2]، و"الظَّنُّ شك ويقين إلاَّ أَنه ليس بيقينِ عِيانٍ، إنما هو يقينُ تَدَبُّرٍ، فأَما يقين العِيَانِ فلا يقال فيه إلاَّ علم..وفي التنزيل العزيز:﴿ إِنِّي ظَنَنتُ أَنِّي مُلَـقٍ حِسَابِيَهْ ﴾[الحاقة:٢٠] أي علمت"[3].

إن إحسان الظن بالله جل وعلا هو توقع الجميل منه سبحانه، وهو من حسن عبادة المرء لربه، وجميل ظنه به؛ جيث يتوقع كل خير منه، وهو من التوفيق الذي يهدى إليه العبد، روى أبو هريرة – رضي الله عنه – أنَّ رسولَ

(١) ديوان أبي نواس، ص ٥٤٣.
(٢) لسان العرب، لابن منظور، مادة "حسن".
(٣) لسان العرب، لابن منظور، مادة "ظنن".

الله ﷺ قال: (حُسن الظَّنِّ من حُسْنِ العبادة)[1]، وما أعطي العبد المؤمن خيراً أفضل من حسن ظن بربه الذي خلقه، فسواه فعدله، روى أبو هريرة عن النبي ﷺ قال: (يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، فإن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي، وإن ذكرني في ملأ ذكرته في ملأ خير منهم، وإن اقترب إلي شبراً اقتربت إليه ذراعاً، وإن اقترب إلي ذراعاً اقتربت إليه باعاً، وإن أتاني يمشي، أتيته هرولة)[2]، فالله يعطي عبده حسب ظنه به، فمن ظن خيراً بالله أدرك خيراً، ومن ظن بربه شراً فهو وظنه، فالخير كله منه سبحانه، والشر ليس إليه، فإحسان الظن عبادة تملأ القلب رضا والنفس سكينة، فالله بالمؤمنين رحيم، وقد وسعت رحمته كل شيء، يقول سفيان الثوري رحمه الله: "ما أحب أن حسابي جعل إلى والدي؛ فربي خير لي من والدي"[3]، وقال عبد الله بن مسعود رضي الله عنه: "والذي لا إله غيره ما أعطي عبد مؤمن شيئاً خيراً من حسن الظن بالله عز وجل، والذي لا إله غيره لا يحسن عبد بالله عز وجل الظن إلا أعطاه الله عز وجل ظنه؛ ذلك بأن الخير في يده"، وعن سهل القطعيّ، قال: "رأيت مالك ابن دينار– رحمه الله– في منامي فقلت: يا أبا يحيى ليت شعري، ماذا قدمت به على الله عزّ وجلّ ؟ قال: قدمت بذنوب كثيرة فمحاها عنّي حسن الظّنّ بالله"[4].

ولقد كان إحسان الظن مما ظهر في شعر أبي نواس، فالقارئ لشعره يلمس صدق إحسان ظنه بربه، وذلك في مضمون معانيه، وفي صريح قوله، من ذلك قوله مشتكياً إلى ربه عظم ذنوبه وكثرتها، موقناً أن عفو ربه أعظم منها، وإذا

(١) جامع الترمذي رقم (٣٦٠٤) في الدعوات، وسنن أبي داود رقم (٤٩٩٣).
(٢) صحيح البخاري، ٣٨٤/٤، وصحيح مسلم ٢٠٦١/٤.
(٣) حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا، ص٤٥.
(٤) حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا، ص٩٦.

كان الله هو ملجأ المحسنين فبمن يستجير العصاة المذنبون، ثم يبدي تضرعه، ويتوسل لربه راجياً أن يعفو عنه، ويغفر ذنبه، يقول:

يا رَبِّ إِن عَظُمَت ذُنوبي كَثرَةً ... فَلَقَد عَلِمتُ بِأَنَّ عَفوَكَ أَعظَمُ

إِن كانَ لا يَرجوكَ إِلّا مُحسِنٌ ... فَبِمَن يَلوذُ وَيَستَجيرُ المُجرِمُ

أَدعوكَ رَبِّ كَما أَمَرتَ تَضَرُّعاً ... فَإِذا رَدَدتَ يَدي فَمَن ذا يَرحَمُ

ما لي إِلَيكَ وَسيلَةٌ إِلّا الرَجا ... وَجَميلُ عَفوِكَ ثُمَّ أَنّي مُسلِمُ[1]

ويقول داعياً نفسه إلى الوقار والصبر والتجمل، ولئن ساءه شيء من طوارق الدهر فإن ما سره منها أكبر مما ساءه، ثم يدعو من وقع في المعاصي وارتكب الموبقات إلى التوبة ، فالله لا يتعاظمه ذنب، فمهما كبر الذنب فهو أصغر من عفو العفو سبحانه، والمرء لا تدبير له ولا قضاء في يده، وإنما التقدير والتدبير لله المدبر، يقول:

يا نُواسيُّ تَوَقَّر ... وَتَجَمَّل وَتَصَبَّر

ساءَكَ الدَهرُ بِشَيءٍ ... وَبِما سَرَّكَ أَكثَر

يا كَبيرَ الذَنبِ عَفوُ اللَـ ... ـهِ مِن ذَنبِكَ أَكبَر

أَكبَرُ الأَشياءِ عَن أَصـ ... ـغَرِ عَفوِ اللَهِ أَصغَر

لَيسَ لِلإِنسانِ إِلّا ... ما قَضى اللَهُ وَقَدَّر

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦١٨، روى الزجاجي.. قال أخبرني وكيع قال حدثني بعض أصحابنا أن أبا نواس رآه بعض أصدقائه في النوم بعد موته فقال له: ما فعل الله بك؟ قال: غفر لي، قال: بماذا؟ قال: بأبيات قلتها، قال: ما هي؟ قال: هي في رقعة في مخدة كانت تحت رأسي، فصار الرجل إلى منزله، فسأل عن المخدة ففتقها فإذا فيها رقعة مكتوب فيها هذه الأبيات. انظر كتاب أخبار أبي القاسم الزجاجي، لعبد الرحمن بن إسحاق البغدادي الزجاجي، أبو القاسم، ص١٠.

لَـــيسَ لِلمَخلـــوقِ تَدبيـــــــــــ ـــــــرٌ بَـــلِ اللَـــهُ المُـــدَبِّر[1]

وفي مقطع قصير يتجلى فيه إحسان الظن بالله، فهو يبشر من يدعو الله ويسأله بالظفر، وبالعطاء الهني الذي لا يشوبه كدر، ويدعوه أن يرغب إلى الرازق وحده، وأن يدع عنه المرزوقين الذين لهم حالات شتى، فهم يتنقلون من الصبا إلى الكهولة فالكِبَر، فالموت، وليس أحد بمنجاة من سقر، ما لم يجره الله وينجيه سبحانه، يقول:

يا ســائِلَ اللَــهِ فُــزتَ بِــالظَفَرِ وَبِـــــالنَوالِ الهَنِـــــيِّ لا الكَـــــدَرِ
فَارغَب إِلى اللَــهِ لا إِلــى بَــشَرٍ مُنتَقِــلٍ فــي البِلــى وَفــي الغِيَــرِ
وَارغَب إِلى اللَهِ لا إِلــى جَــسَدٍ مُنتَقِــلٍ مِــن صِــباً إِلــى كِبَــرِ
إِنَّ الَّــذي لا يَخيــبُ ســائِلُهُ جَــوهَرُهُ غَيــرُ جَــوهَرِ البَــشَرِ
مــا لَــكَ بِالتُرَّهــاتِ مُــشتَغِلاً أَفــي يَــدَيكَ الأَمــانُ مِــن سَــقَرِ[2]

كما أنه يشير في أبيات أخرى إلى أنه قد انكسرت حدة شبابه وشرّته، وعاف الملهيات إذ ابيض مفرقه، ونهاه عقله عن مقارفة الذنوب، ومراعاة الذين ينصحونه، ويدعونه للتعقل، ومن تجربة يدعو الساهي المقيم على المعاصي أن يقلع عنها، فلا عذر لأحد؛ لأنه لا خلاص غداً من عقوبة الله إن لم يدركنا عفو الله، ثم يؤكد أنه مع تفريطه وإساءته يرجو حسن عفو الله جل وعلا، يقول:

اِنقَضَت شِــرَّتي فَعِفــتُ المَلاهــي إِذ رَمى الشَيبُ مَفرِقــي بِالــدَواهي
وَنَهَتني النُهــى فَمِلــتُ إِلــى العَــد لِ وَأَشــفَقتُ مِــن مَقالَــةِ نــاهِ
أَيُّها الغافِلُ المُقيمُ عَلى الــسَهَــــــ ـــــوِ وَلا عُذرَ في المُقــامِ لِــساهِ

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦٢٠.
(٢) ديوان أبي نواس، ص ٦٢٢.

لا بِأَعمالِنـــا نُطيـــقُ خَلاصـــاً يَومَ تَبـدو الـسَماءُ فَـوقَ الجِبـاهِ
غَيرَ أَنّي عَلى الإِســاءَةِ وَالتَفـــــ ـــريطِ راجٍ لِحُسنِ عَفــوِ اللَــهِ[1]

وفي معرض سيرة أبي نواس قال ابن خلكان: وما أحسن ظنه بربه عز وجل حيث يقول:

تَكَثَّرْ مَــا اسْــتَطَعْتَ مِــنْ الخَطَايَــا إِذَا كَــانَ القُــدُومُ عَلــى كَــرِيمِ[2]

وقال وهي من رواية أخرى:

تَكَثَّر مــا اِســتَطَعتَ مِــنَ الخَطايــا فَإِنَّـــكَ قاصِـــدٌ رَبّـــاً غَفـــورا
سَيُفــضي ذاكَ مِنــكَ إِلــى نَعــيمٍ وَتَلقــى ماجِــداً صَــمَداً شَــكورا
تَعُـــضُّ نَدامَـــةً كَفَّيـــكَ مِمّـــا تَرَكتَ مَخافَــةَ النــارِ الــسُرورا[3]

قال ابن خلكان: وهذا من أحسن المعاني وأغربها[4].

وهذا المعنى كثير التردد في شعره في صياغات مختلفة، يقول في ختام قصيدة له:

وتـــــيقّن أنّ عفـــــو الـــــــ ـــــــلَهِ لاقٍ ذا الأنامـــــــا
هـــــل ينـــــالُ العفـــــوُ إلّـــــا مـــــذنبٌ نـــــالَ الأثامـــــا[5]

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦٢١.
(٢) رواية الديوان للشطر الثاني هي: فَإِنَّكَ قاصِدٌ رَبّاً غَفورا .
(٣) ديوان أبي نواس، ص ٧٣٠.
(٤) وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، ابن خلكان، ٢/٩٧-٩٨.
(٥) اللطائف والظرائف، الثعالبي، ص ٢٠٥.

"ابْتَهَل في الدعاء إذا اجْتَهَدَ، ومُبْتَهِلاً أَي مُجْتَهِداً في الدعاء، والابتهال: التضرُّع، والابتهال: الاجتهاد في الدعاء وإِخْلاصُه لله عز وجل، وفي التنزيل العزيز: ﴿ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ ﴾[آل عمران:٦١] أَي يُخْلِصْ ويجتهد كلٌّ منا في الدعاء واللَّعْنِ على الكاذب منا، قال أَبو بكر: قال قوم: المُبْتَهِل معناه في كلام العرب المُسَبِّح الذاكر لله..وقال قوم: المُبْتَهِل الداعي"(١)، يقول أبو نواس:

إِذا ابتَهَلْتُ سَأَلتُ اللَهَ رَحمَتَهُ كَنَّيتُ عَنكَ وَما يَعدوكَ إِضماري(٢)

"ومما قال نوح عليه السلام: ﴿ وَإِلَّا تَغْفِرْ لِى وَتَرْحَمْنِىٓ أَكُن مِّنَ ٱلْخَـٰسِرِينَ ﴾ [هود:٤٧]، قال أمير المؤمنين: العجب لمن يقنط ومعه النجاة الاستغفار. وقيل: لا صغيرة مع الإصرار ولا كبيرة مع الاستغفار. وقال عمر رضي الله عنه: لم أر أشد طلباً وأسرع دركاً من حسنة حديثة لذنب قديم..وسئل بعض المجان: كيف أنت في دينك؟ قال: أخرقه بالمعاصي وأرقعه بالاستغفار، وقال مالك ين أنس: كنا عند جعفر ابن محمد فدخل سفيان الثوري فقال له: حدثني رحمك الله، فقال: يا أبا عبد الله قد أكثرت من الحديث وكثرة الحديث تخبل، أعلمك ثلاثاً هن خير لك من مال كثير: يا سفيان إذا أنعم الله عليك نعمة فأكثر من الحمد لله فإن الله تعالى يقول: ﴿ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ﴾ [إبراهيم:٧] وإذا قلّت نفقتك فعليك بالاستغفار فإنه يزيدك من المال والولد

(١) لسان العرب، ابن منظور، مادة "بهل".
(٢) ديوان أبي نواس، ص ٢٢٣.

والنعمة؛ قال الله تعالى: ﴿ ٱسْتَغْفِرُواْ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ۝ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ۝ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ ﴾[نوح:١٠-١٢]، وإذا اشتد بك كرب فعليك بلا حول ولا قوة إلا بالله فإنها كنز من كنوز الجنة، فجعل سفيان يقولها ويعدها في يده ثلاثاً وأي ثلاث، فقال جعفر: قد والله عقلها وفهمها[١]".

لقد كثرت أبيات أبي نواس التي يخاطب فيها نفسه داعياً إياها إلى التوبة النصوح، والإقلاع عن الذنوب قبل أن تفوت الفرصة، فقد تمادت في غيها، وشبعت من المعاصي، وليس أقبح منظراً من رجل اقتربت شمسه من المغيب، ولازال يسعى خلف مجالس اللهو والطرب، ومن لم ينه نفسه ويصونها من الخطل فإنه ستقوده إلى هلاكه المحتم، يقول:

أَيـــا مَـــن بَـــينَ باطِيَـــةٍ وَزِقٍّ ... وَعودٍ فـــي يَـــدَي غـــانٍ يُغَنّـــي
إِذا لَـــم تَنـــهَ نَفـــسَكَ عَـــن هَواهـــا ... وَتُحـــسِنُ صَـــونَها فَإِلَيـــكَ عَنّـــي
فَإِنّي قَـــد شَـــبِعتُ مِـــنَ المَعاصـــي ... وَمِـــن لَـــذّاتِها وَشَـــبِعنَ مِنّـــي
وَمَـــن أَســـوا وَأَقـــبَحُ مِـــن لَبيـــبٍ ... يُرى مُتَطَرِّباً فـــي مِثـــلِ سِـــنّي[٢]

إن أبيات الشعراء التي تدور معانيها على دعوة النفس إلى التوبة، وتذكيرها بالله واليوم الآخر، وتزهيدها في الدنيا الفانية، وحثها على القيام بالأعمال الصالحة لا تكون غامضة، ولا تحتاج إعمال عقل ولا ذهن لإدراك معانيها، يقول مذكراً نفسه بأهمية مجاهدة النفس، والتشمير للمنافسة على الربح الحقيقي، وهو تقوى الله، وطلب رضاه سبحانه، يقول:

(١) محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، ٤/٢٤٣-٢٤٤.
(٢) ديوان أبي نواس، ص ٦١٧.

لِلَّــهِ دَرُّ الــشَيبِ مِــن واعِــظٍ وَناصِــحٍ لَــو سُــمِعَ الناصِــحُ
يَــأبى الفَتــى إِلّــا اتِّبــاعَ الهَــوى وَمَــنهَجُ الحَــقِّ لَــهُ واضِــحُ
فَاســمُ بِعَينَيــكَ إِلــى نِــسوَةٍ مُهــورُهُنَّ العَمَــلُ الــصالِحُ
لا يَجتَلي الحَــوراءَ مِــن خِــدرِها إِلّــا امــرُؤٌ ميزانــه راجِــحُ
مَــنِ اتَّقــى اللَــهَ فَــذاكَ الَّــذي ســيقَ إِلَيــهِ المَتجَــرُ الــرابِحُ
شَمِّر فَمــا فــي الــدينِ أُغلوطَــةٌ وَرُح لِمــا أَنــتَ لَــهُ رائِــحُ[1]

ولأبي نواس أبيات يخاطب فيها نفسه؛ داعياً إياها إلى التوبة والأوبة والاستغفار مما سلف وفات من الذنوب، ومحذراً من طروق الحوادث وغير الليالي والأيام، وقرب الأجل وحلول الموت، وحاثاً على تقوى الله، فهي خير الكسب وأزكاه، مع الجد في السعي في ذلك، يقول:

حَتّــى مَتــى يــا نَفــسُ تَغــ ــتَرّينَ بِالأَمَــلِ الكَــذوبِ
يــا نَفــسُ تــوبي قَبــلَ أَن لا تَــستَطيعي أَن تَتــوبي
وَاِســتَغفِري لِــذُنوبِكِ الـ ــرَحمَنَ غَفّــارَ الــذُنوبِ
إِنَّ الحَــوادِثَ كَالرِيــا حِ عَلَيــكِ دائِمَــةَ الهُبــوبِ
وَالمَــوتُ شَــرعٌ واحِــدٌ وَالخَلــقُ مُختَلِفــو الــضُروبِ
وَالــسَعيُ فــي طَلَــبِ التُقــى مِــن خَيــرِ مَكــسَبَةِ الكَــسوبِ
وَلَقَلَّمــا يَنجــو الفَتــى بِتُقــاهُ مِــن لُطَــخِ العُيــوبِ[2]

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦١٨.
(٢) ديوان أبي نواس، ص ٦١٦.

وله أبيات في الابتهال والتضرع والمناجاة تنم عن تأله وأوبة، وتلمس فيها صدق التوبة، يستعطف بها ربه، ويعترف بذنبه، ويستجير به منه سبحانه، يقول:

أَيا مَـن لَـيسَ لـي مِنـهُ مُجيـرُ ... بِعَفـوِكَ مِـن عَـذابِكَ أَستَجيرُ
أَنـا العَبـدُ المُقِـرُّ بِكُـلِّ ذَنـبٍ ... وَأَنـتَ السَيِّدُ المَـولى الغَفـورُ
فَـإِن عَـذَّبتَني فَبِـسوءِ فِعلـي ... وَإِن تَغفِـر فَأَنـتَ بِـهِ جَـديرُ
أَفِـرُّ إِلَيـكَ مِنـكَ وَأَيـنَ إِلّـا ... إِلَيـكَ يَفِـرُّ مِنـكَ المُستَجيرُ[1]

وحين يسر الله لأبي نواس الحج أنشأ قصيدة يخاطب بها ربه، ويعظمه بها، ويثني عليه بما هو أهله جل وعلا، ويلبي لربه موحداً وسائلاً ربه عفوه، يقول فيها:

إِلَهَنـا مـا أَعـدَلَك ... مَليـكَ كُـلِّ مَـن مَلَـك

لَبَّيكَ قَد لَبَّيتُ لَك

لَبَّيـكَ إِنَّ الحَمـدَ لَـك ... وَالمُلـكَ لا شَـريكَ لَـك
مـا خـابَ عَبـدٌ سَـأَلَك ... أَنـتَ لَـهُ حَيـثُ سَـلَك

لَولاكَ يا رَبُّ هَلَك

لَبَّيـكَ إِنَّ الحَمـدَ لَـك ... وَالمُلـكَ لا شَـريكَ لَـك
كُـلُّ نَبِـيٍّ وَمَلَـك ... وَكُـلُّ مَـن أَهَـلَّ لَـك
وَكُـلُّ عَبـدٍ سَـأَلَك ... سَـبَّحَ أَو لَبّـى فَلَـك
لَبَّيـكَ إِنَّ الحَمـدَ لَـك ... وَالمُلـكَ لا شَـريكَ لَـك

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦١٠.

وَاللَيـــــلَ لَمّـــــا أَن حَلَـــــك وَالـــــسابِحاتِ فـــــي الفَلَـــــك

عَلى مَجاري المُنسَلَك

لَبَّيـــــكَ إِنَّ الحَمـــــدَ لَـــــك وَالمُلـــــكَ لا شَـــــريكَ لَـــــك

اِعمَـــــل وَبـــــادِر أَجَلَـــــك وَاِخـــــتُم بِخَيـــــرٍ عَمَلَـــــك

لَبَّيـــــكَ إِنَّ الحَمـــــدَ لَـــــك وَالمُلـــــكَ لا شَـــــريكَ لَـــــك[1]

ويقول معاتباً نفسه على تفريطها وغفلتها عن الشهود الكاتبين الذين يحصون عليها كل شيء، وكم مرة وعدت بالإقلاع عن اقتراف المعاصي، والأوبة لغفار الذنوب قبل أن يدهم الموت، ولات ساعة مندم، يقول:

أَفنَيـــتَ عُمـــرَكَ وَالـــذُنوبُ تَزيـــدُ وَالكاتِبُ المَحـــصي عَلَيـــكَ شَـــهيدُ

كَم قُلـــتَ لَـــستُ بِعائِـــدٍ فـــي سَـــوأَةٍ وَنَذَرتَ فيها ثُـــمَّ صِـــرتَ تَعـــودُ

حَتّـــى مَتـــى لا تَرعَـــوي عَـــن لَـــذَّةٍ وَحِـــسابُها يَـــومَ الحِـــسابِ شَـــديدُ

وَكَـــأَنَّني بِـــكَ قَـــد أَتَتـــكَ مَنِيَّـــةٌ لا شَـــكَّ أَنَّ سَـــبيلَها مَـــورودُ[2]

(١) ديوان أبي نواس، ص ٦٢٣.

(٢) ديوان أبي نواس، ص ٦١٩.

الخاتمة

وبعد: فقد أوضحت هذه الدراسة البحثية النزعة التعبدية في شعر أبي نواس، وأبانت أن ليس كل من وصم بالفجور واشتهر بالمجون تطمس كل معالمه، ويرمى بكليته، فما يخلوا شاعر في الغالب من نزعة تعبدية، يتجلى فيه شعرياً، ويعبر فيها عن معان دينية، وإن تمادى به الغي، مع بيان أن هذا البحث دارت مادته حول موضوعات تعبدية خالصة، مما أجمع عليه علماء الشريعة.

إن تناول مثل هذه الموضوعات القيمة بالدراسة يسلط الضوء على المعاني الإيجابية، ويساعد على إبرازها، والعناية بها، ويحث عليها، كما يعين على الاعتدال في إصدار الأحكام على الشعراء وتقييمهم بصورة عادلة لاجنف فيها ولا حيف، فالمجتمعات الإسلامية بحاجة ماسة لتقديم مثل هذه الدراسات مدعمة بجميل الشواهد، وطريف الأبيات ونادرها؛ لترسيخ هذه الجوانب التعبدية، فما خلق الإنسان إلا لعبادة ربه.

كما أن المحيط الاجتماعي والبيئة الثقافية لها بالغ الأثر على النفس الإنسانية، فتأثيرها ينفذ إلى أعماق النفس، ويمكث فيها، ويصحب الإنسان بقية حياته؛ وإن تفرقت به السبل، وتكاثرت لديه الآراء، وتشعبت به الأهواء، فمن كانت له نشأة متدينة، وتحصيل معرفي، وموروث أخلاقي ظهر أثر ذلك كله عليه ما بقي؛ حتى وإن حاول إخفاءه، بل إن مرده إلى ما كان عليه متى ما انكسرت موجة شبابه، وفلت عوادي الأيام حدته، واستوى عوده، وتم تمامه، فلكل شِرّة فترةٌ.

وحيث قد شهر عن أبي نواس فجوره وخمرياته وفخره باقتراف المعاصي فإن في طيات شعره ما يدل على نزعة تعبدية تخفى أحياناً، وتتجلى أحياناً أخرى، تم في هذا البحث استدعائها وتجليتها؛ لنعرف هذا الجانب عنه، ولا نعجل في إصدار الحكم عليه، ولا ننبذه كله، فهو من شعراء العربية الكبار

الذين أعطوا القدرة على البيان عنها بأجمل صورة وأحكم عبارة وأعلا بيـــان، فهذا البحث " النزعة التعبدية في شعر أبي نواس" يتناول جوانب التـــدين فـــي شعره، ويبرز أهم صورها، ويعرِّف بها، ويستدعي الشواهد الداعمة لهـــا مـــن شعر أبي نواس الحسن بن هانئ.

وقد بين البحث أن للإنسان جوانب خفية تستحق أن تشهر وتظهر؛ حتى لا يقع تحت حكم أحادي، ومن حق من شُهر بسوء أن يعامل بالعدل؛ بحيث تذكر الجوانب الإيجابية عنه، ويستفاد من صالح قوله، وجميل فعله إن وجد، وهذا ما جلاه هذا البحث، وهو تبيين النزعة التعبدية من خلال بيان مفهومها الذي اصطلح عليه علماء الشريعة، مع الاستشهاد بأمثلة من شعر أبي نواس.

ويوصي الباحث بتسليط الضوء على الجوانب التعبدية في شعر العرب، وتقديم دراسات مستفيضة حول النزعات التعبدية مع استدعاء الشواهد والمثل من أشعار العرب في مختلف عصورهم الشعرية، وتناول هذه المواد الشعرية بما يشبع نهم القراء ويروي غليلهم، فأشعار العرب تحوي مادة غزيرة من ذلك كله.

المصادر والمراجع

١- أبونواس في تاريخه وشعره ومباذله وعبثه ومجونه، أبوالفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الإفريقى، الطائف، مكتبة المعارف، لم يذكر تاريخ الطبعة.

٢- أحسن ما سمعت، الثعالبي، أبو منصور عبد الملك بن محمد، وضع حواشيه خليل المنصور، ط:١، بيروت لبنان، دار الكتب العلمية، ٢٠٠٠ م.

٣- أخبار أبي تمام، الصولي، أبو بكر محمد بن يحي، تحقيق محمود عساكر ومحمد عبده عزام، بيروت، لبنان، المكتب التجاري للطباعة والنشر والتوزيع، ١٩٣٦م.

٤- الأعلام، الزركلي، خير الدين، ط:٧، بيروت لبنان، دار العلم للملايين، ١٩٨٦م.

٥- رسالة الغفران، المعري، أبو العلاء أحمد بن عبد الله تحقيق د.محمد الإسكندراني ود.إنعام فوال، ط:٢، بيروت، لبنان، دار الكتاب العربي، ١٤٢٤هـ.

٦- تاريخ النقد الأدبي عن العرب- نقد الشعر من القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، د. إحسان عباس، ط: ٣، بيروت، لبنان، دار الشروق، ٢٠٠١م.

٧- الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله ﷺ وسننه وأيامه، البخاري، أبوعبد الله محمد بن إسماعيل، عناية محمد زهير الناصر، ط:١، بيروت، دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي)، ١٤٢٢هـ.

٨- الجامع الكبير، الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة، تحقيق بشار عواد معروف، بيروت، دار الغرب الإسلامي ، ١٩٩٨ م.

٩- جمع الجواهر في الملح والنوادر، الحصري القيرواني، أبو إسحاق إبراهيم بن علي، تحقيق علي محمد البجاوي، ط:١، لبنان، دار إحياء الكتب العربية، ١٩٥٣م.

١٠- حسن الظن بالله، ابن أبي الدنيا، أبو بكر عبد الله بن محمد بن عبيد، تحقيق مخلص محمد، ط:١، الرياض، دار طيبة، ١٩٨٨م.

١١- دلائل الإعجاز، الجرجاني، عبد القاهر، قرأه وعلق عليه أبو فهر محمود محمد شاكر، ط:٢، القاهرة، مصر، مكتبة الخانجي، ١٩٨٩م.

١٢- ديوان أبي نواس، حققه وضبطه وشرحه أحمد عبد المجيد الغزالي، ط:١، بيروت لبنان، دار الكتاب العربي ١٩٨٤م.

١٣- رسائل الانتقاد في نقد الشعر والشعراء، ابن شرف القيرواني، أبوعبد الله محمد بن سعيد، تحقيق حسن حسني، ط:١، بيروت، دار الكتاب الجديد، ١٩٨٢م.

١٤- سنن أبي داود، أبو داود، سليمان بن الأشعث الأزدي السِّجِسْتاني، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، صيدا بيروت، المكتبة العصرية، ١٩٩٣م.

١٥- شفاء العليل في مسائل القضاء والقدر والحكمة والتعليل، ابن قيم الجوزية، شمس الدين محمد بن أبي بكر، ط:١ بيروت، لبنان، دار المعرفة، ١٣٩٨هـ.

١٦- الشعر والشعراء، ابن قتيبة، عبد الله بن مسلم الدينوري، تحقيق مفيد قميحة، ط:٢، بيروت، لبنان، دار الكتب العلمية،١٩٨٥م.

١٧- طبقات الشعراء، ابن المعتز، عبد الله، تحقيق عبد الستار أحمد فراج، ط:٣، القاهرة، مصر، دار المعارف، ١٩٥٦م.

١٨- كتاب الصناعتين، العسكري، أبو هلال الحسن بن عبد الله، تحقيق علي محمد البجاوي، ومحمد أبو الفضل إبراهيم، بيروت، المكتبة العصرية، ١٤٠٦هـ.
١٩- لسان العرب، ابن منظور، أبو الفضل جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري الرويفعى الإفريقى، ط:١، بيروت، لبنان، دار إحياء التراث العربي، ١٩٩٦م.
٢٠- اللطائف والظرائف، الثعالبي، عبد الملك بن محمد بن إسماعيل أبو منصور، بيروت، لبنان، دار المناهل.
٢١- محاضرات الأدباء ومحاورات الشعراء والبلغاء، الراغب الأصفهاني، أبوالقاسم الحسين بن محمد، تحقيق رياض عبد الحميد مراد، ط:١، بيروت، دار صادر، ١٤٢٥هـ.
٢٢- المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم، مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري، تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت.
٢٣- معاهد التنصيص على شواهد التلخيص، العباسي، عبد الرحيم بن أحمد، تحقيق محمد محيي الدين عبد الحميد، ط:١، بيروت، لبنان، عالم الكتب.
٢٤- مع الله الاسم الأعظم وقصة الأسماء الحسنى، العودة، سلمان بن فهد، ط:٥ الرياض ، الإسلام اليوم للنشر، ١٤٣١هـ.
٢٥- المعجم الأدبي، جبور، عبد النور، ط:١، دار العلم للملايين، بيروت، ١٩٧٩م.
٢٦- النقد الجمالي وأثره في النقد العربي، روز غريب، دار الفكر اللبناني، بيروت، ١٩٧٣م.
٢٧- وفيات الأعيان وأنباء أبناء الزمان، أحمد بن خلكان، تحقيق إحسان عباس، دار صادر.

* * *